

## دولة المماليك في حكم التاريخ للأستاذ ظافر الدجاني

لعل تاريخ الشرق الأدنى في عهد الحكومة الإسلامية أحفل بالتواريخ بما يملأه علم النفس جوانب الفكر والخيال، ويوحى إليها أبلغ ضروب الحكمة والوعظة، لأنه كان مسرحاً لظهور بعض الدويلات الإسلامية الفريسة في نشوئها ومظاهر حكمها ومبلغ تأثيرها في مجرى تاريخه العام<sup>(١)</sup> ولعل أعرب هذه الدويلات، دولة المماليك في مصر، التي اختلست من الدهر ما يزيد على خمسين ومائتي سنة، كان الملوك فيها مالكاً والغلوب غالباً، فكان يتخللها من المؤامرات واللدس وأهوال الاستبداد مالا نظيره في تاريخ المجتمع البشري. على أنها والحق يقال ليست أول محاولات هذه الطائفة البشرية لاغتصاب الحكم والاستبداد به والانتقام

(١) كانت العوامل التي دعت إلى ظهور هذه الدويلات كثيرة منها اضطراب أحوال الشرق السياسية وقلية الاستبداد على حكمه وملوكه وشيوع بعض الآراء السياسية والدينية وعظم تأثيرها في نفوس العامة، وبعض مظاهرها الاجتماعية كحياة القصور والحريم ونحو ذلك مما تضييق بذكره هذه الكلمة

ذلك بمعاونة المستعيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت وحين أعيانها عمر بك الداوق الذي كانت طريقته وطريقة أعرانه أن يعملوا ولا يقولون، ويذلون مالم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبعجون

قوت الميون بهذا العمل الخطير الذي كان سداً الاخلاص، ولحمته حب الدين والدينية، فدفت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أنها خطوة إلى الأمام، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضي، في محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة؛ وقل في الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره في هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية؛ وقل أن كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت. ونمود فتؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابسين من أبناء بيروت لقضى مع الزمن على الأمية في المسلمين. وجوه كل نهضة في عقول الرجال، ولا نجاح في الأعمال لغير المخلصين الثابرين

رمس

محمد كرد علي

من الجنس الانساني عامة لما ألحقه بها من ضروب الفظاعة والقساوة، فقد شهد تاريخ رومة الخالد، قبل ظهور النصرانية، كثيراً من هذه المحاولات الجائعة التي باءت جميعها بالفشل والخذلان بعد أن روعت للعالم وضربت له مثلاً صارماً فيما يستطيعه أبناء المماليك، بل أبناء كل طائفة مظلومة، في ميدان التمرد والانتفاض ومقايسة الجور والأذى الصاع منها بمصاعين. ولعل هذه الدولة كانت أكبر انتصار أحرزته هذه الطائفة، بل لعلها أروع مظهر لجروح أخلاقها، وتعدد الخوارج التي كانت تتجاذب نفوسها وتتنازعها إلى مسالك الخيبر والرجولة وجيلائل الأعمال ومفاوز الشر والجريمة والآثام

ففي الحق أن هذه الدولة لعبت دوراً خطيراً على مسرح الحياة السياسية العمرانية في الشرق الأدنى حتى ليمزى إليها أكبر الفضل في صد هجمة التتر النبتة من أعماق الشرق؛ قال ابن خلدون: «حتى إذا استفرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبست أبواب البلاء والمعجز، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسى الخلافة وطمسوا رونق البلاد، وأدالوا بالكفر عن الإيمان بما أخذ أهلها عند الاستتراق في التثمن والتشاغل في اللذات والاسترسال في الترف من تكاسل المهم، والقعود عن الفاعرة، والانسلاخ من جلدة اليأس وشمار الرجولة؛ فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بأحياء رمة وتلافى شمل المسلمين باليار المصرية بمحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بث لهم من هذه الطائفة التركية وقاتلها المزينة التوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية يجلبون من دار الحرب إلى دار الاسلام في حجارة الرق»<sup>(١)</sup> فكانت تنقضي أيام هذه الطائفة في التنقل من ميدان إلى ميدان، ومن حصن إلى حصن، في مختلف أنحاء سوريا وفلسطين، وقد اندحر التتر في أكثر من واقعة واحدة؛ كواقعة «عين الجالوت» التي كان النصر فيها حليف المسلمين، فهلك كتبوغا زعيم التتر، ومزقت جموعه كل ممزق<sup>(٢)</sup> كما هلك خليفته أيضاً وجموعه من بعده، وعند ما حاربهم الملك الظاهر بيبرس، وردمهم على أعقابهم خاسرين متمزقين في أذيال المهزيمة<sup>(٣)</sup>، وكانت سوريا في خلال ذلك

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧١

(٢) تاريخ مصر لابن إياس ص ١٣١٢ ج ١ ص ٩٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩

بجليل الآثار . فمصر الملك الظاهر الحرم النبوي ، وقبة الصخرة ، وقناطر شبرامنت بالجيزة ، وقلمة دمشق ، وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة ، وحفر خليج الاسكندرية ، وبني قرية الظاهرية<sup>(١)</sup> . وشيد الملك الناصر القصر الكبير الأبلق ، وعمر الديوان الكبير والجامع الكبير الذي بالقلمة ، وعمر الجراة وأجراها من بحر النيل الى القلمة ، وحفر الخليج الناصري ، وعمر قناطر أم دينار<sup>(٢)</sup>

على أنه مهنا قيل في حسنات هؤلاء المماليك فنمت ما يقال في سيئاتهم وفيما خلفوه من آثار البطش والجور والارهاق ، نخبث سيرتهم وعظيم جورهم ، وغلبة القسوة وشهوة الاستبداد على طبائهم ، أولئك الذين كانوا في الأوس مبيداً أرقاء ؛ فكان السلطان منهم مستبداً في أمره لا ولزيع يكفه عن عمل الموبقات ؛ وكانوا فوق ذلك لا يعرفون « مبدأ الورائة » في الحكم ، فكان القوى منهم ينتهز الفرص للتفرد بالحكم والاستبداد بالضعيف ، فكان ذلك الوقت وقت تشاغل وفرص ، بل وقت مؤامرات تحاك في الخفاء ، فلا يسلم منها الشعب ، ويصيبه من جرائها كثير من الجور والارهاق . وكانت الضرائب غير مقيدة بقانون أو وازع ديني أو إنساني ، وإنما كانت تتفاوت في الزيادة والنقصان حسب الظروف والأحوال ومشيئة السلطان

ولم تكن مصر مع ما ذكرنا بأسوأ حالاً من سورية وفلسطين ، ولا آسيا وأن الأخيرتين كانتا ميديناً للحروب والمناحرات . وهكذا ضج الناس وعم الفقر ، وانتشر الجهل والبلاء . وكان المجد العربي والعزة العربية وانطلق العربي قد اعنت جميعها من أذهان العامة ، فأصبح الناس لا يباليون بمن يولونه قيادهم ، ويسلمون له زمام أمورهم ، وإنما يطلبون العدل والانصاف ! وفي وسعنا المضي في هذا السبيل القاتم ، ولكننا نخشى ألا يكون في ذلك فائدة بمد أن دللنا بالقليل على الكثير ، وهذه كتب التاريخ حافلة بمظاهر الجور بل بمشاهد الفقر والذل التي سادت الشرق العربي في ظل حكم المماليك

طارق الرحمانى

يافه

ع . أ

(١) ابن اياس ص ١١١ (٢) المصدر نفسه ١٧٥

ميداناً لجهاد هؤلاء المماليك النيف ضد الحملات الصليبية فامتلات بجيوشهم وزهرة فرسانهم ، وما زالوا يذرعون أرضها صعوداً وسدوداً ، متكاتفين متكالبين حتى انتزعوا السلطة من أيدي الصليبيين ، واستخلصوا منهم القلاع والحصون ، فافتتح الملك الظاهر بيبرس حصن صعد وسيس<sup>(١)</sup> ، وسيس هذه كانت كعبة المجاهدين من أبناء المماليك لأنها مدينة نصرانية ، فكان أهلها يظهرون الأرض على جيوش المسلمين

وكان العلويون والحشاشون ، وهم من الباطنية ، أصحاب سلطة وتفوذ ، وكان قد دوخهم هولاً كوك في حملته الشهورة ، ودمر حصونهم وقلاعهم<sup>(٢)</sup> فاستأصل أبناء المماليك شأقهم ، وحرروا سوريا من ربة مظالمهم في عهد الملك الظاهر بيبرس المذكور<sup>(٣)</sup> . وكان الملك الظاهر بيبرس هذا قد استفيد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله آخر خلفاء الدولة الميمنية في بغداد ، فأكرمه وقلده الخلافة ولقبه « المستنصر بالله » ، فأصبحت القاهرة مركز الخلافة الاسلامية بعد أن كان مركزها بغداد . وبقيت هنالك حتى مقدم العثمانيين<sup>(٤)</sup> . ولكن الواقع أن سلطة هؤلاء الخلفاء كانت مقيدة لا تمتدو أمور الدين والزمامة الدينية . وإنما أكد حاجة المماليك الى هذه الخلافة الوهمية رغبتهم في رسم حكومتهم بطابع ديني شرعي حتى تنهض حججهم ويستقيم أمرهم بين جماعات المسلمين<sup>(٥)</sup>

وأخيراً لا ينبغي أن ننسى أن هؤلاء المماليك قد خلفوا كثيراً من الآثار والأبنية التي تشهد لهم بالتقدم في فن العمارة وفي الرى وال عمران ، فقد شيدوا المساجد والمدارس والقصور والمتشفيات ، وعمروا القناطر والترع ، وحفروا الخللجان ، ووسعوا الأوقاف من كل ناحية . وكانوا يتبارون في ذلك حتى عمر القطر المصري والبلدان المجاورة التي خضعت لحكم المماليك

(١) المصدر نفسه ١٠٤

(٢) تاريخ مصر الحديث ، للمرحوم جورجى زيدان ، مصر ١٨٨٩ م

(٣) دائرة المعارف الاسلامية « مادة للماليك » ص ١٨

(٤) راجع تاريخ ابن اياس التقدم ج ٣ ص ٩٧ . وتاريخ جودت ترجمة

دنا ( بيروت ١٣٠٥ هـ ) مجلد (١) الخ . . .

(٥) ابن اياس ص ١٠٠ . قال Main في كتابه المماليك ( لندن

١٨٩٦ م ) ص ٢١٤ ما ترجمته : « كانت خلافة المماليك مظهراً لأثر الحياة

فيه ، ولكن خلافة العثمانيين كانت مجرد حلم ! »